عائلة الثالوث القدوس
دوما – لبنان
www.holytrinityfamily.org

الكنيسة والكنائس في فكر الأب جورج فلوروفسكي
الحركة المسكونية: من أين؟ وإلى أين؟

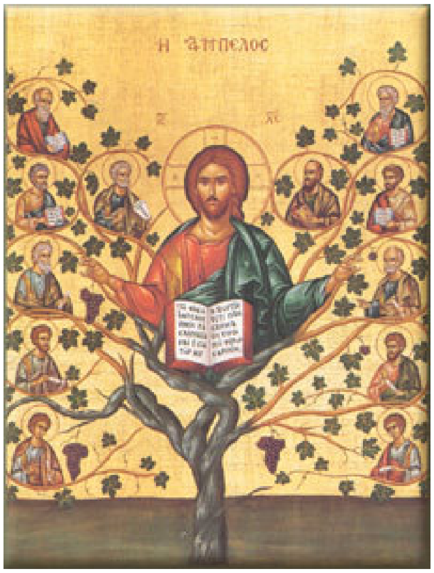

الفهرس

- تقديم
- ما هو واضح لديه
- لِمَ انخراطنا في الحركة المسكونية؟
- العلّة والعلاج المرتجى
- سبيل ينبغي تجنّبه
- مزالق ينبغي الحذر منها
- في ضوء ما تقدّم
- إلى أين؟

تقديم

الأب جورج فلوروفسكي أحد أبرز اللاهوتيّين الآبائيّين الأرثوذكسيّين في القرن العشرين. جمعَ إلى المعرفة العميقة استقامة الموقف ورحابة التوجّه ونفاذ البصيرة والشفافية التراثية. واكب الحركة المسكونية التي تمخّضت عن تأسيس مجلس الكنائس العالمي في أمستردام سنة ١٩٤٨. عبّر بوضوح وبلاغة عن الموقف الأرثوذكسي التراثي من العمل المسكوني كما لم يعبِّر عنه أحد سواه. في مجموعة أعمال الأب فلوروفسكي الصادرة بالإنكليزية في أربعة عشر جزءاً، في الثمانينات من القرن العشرين، تحتلّ كتاباته، في الشأن المسكوني، المجلّدين الثالث عشر والرابع عشر (١٩٨٩). الإطلاع على مساهماته إغناء للفكر المسكوني وعود على بدء انتقاء الضبابية والحيدان عن المسرى القويم. ستة

عقود من الزمن كادت تنقضي سبقتها تحضيرات هامة، هذه اعتورتها تفاعلات بدّلت النظرة إلى الذات. اهتمامات خبت واهتمامات احتدّت، كلّها بحاجة إلى إعادة نظر وتقويم حتى لا يكون استمرار التلاقي المسكوني بقوّة العطالة (Inertia) وحتى لا يتكوّن، من جرّائه، جسم يستمدد قيمته من ذاته ويفرض نفسه كأمر واقع له تكوينه وغاياته الخاصة من حيث يدري الناشطون فيه أو لا يدرون. مطالعتنا لما كتب تمدّنا بالمنطلقات التي كان، على أساسها، في نظره، الإقبال الأرثوذكسي على العمل المسكوني.

ما هو واضح لديه

يعبِّر فلوروفسكي، في إبداء نظرته إلى الكنيسة المقدّسة، عن قناعة هي، إليه، بديهيّة لا مانع أن يُوسَم، في شأنها، بالعناد معتبراً عناده "عناداً في البديهيّة"[١]،على حدّ تعبيره. مؤدّى هذه البديهيّة، التي هي في أساس إقباله على الحوار المسكوني، أن الكنيسة واحدة، وهذه الوحدة هي جوهر الكنيسة بالذات. ما انقسم هو العالم المسيحي. أما الكنيسة فغير منقسمة ولا سبق لها أن انقسمت وهي غير قابلة للإنقسام. لفظة "الكنيسة"، في الاستعمال الصارم والدقيق للكلمة، ليست لها صيغة جمع ولا لها موقف متساهل من هذه الصيغة إلاّ مجازياً[٢]. لذلك نخطئ إذا ما تكلّمنا على انقسام في الكنيسة. الدقّة تحدونا، بالأحرى، إلى التحدّث "لا عن انشقاق في وحدة الكنيسة بل عن افتراق عن الكنيسة"[٣]. ويمضي الأب فلوروفسكي في وضع النقاط على الحروف فيُبدي أنه، بصفته عضواً وكاهناً في الكنيسة الأرثوذكسية، يؤمن بأن الكنيسة التي اعتمد ونشأ فيها "هي، في الحقيقة العميقة، الـ "الكنيسة" أي الكنيسة الحقّ والكنيسة الحقيقية الوحيدة". تعليلاته قناعته الشخصية أولاً والشهادة الداخلية للروح القدس الذي ينفخ في أسرار الكنيسة وما تعلّمه من الكتاب المقدّس والتقليد الجامع للكنيسة. بناء عليه يصرّح، من دون عقد، أن كل الكنائس المسيحية الأخرى، في نظره، تعتورها العيوب. "وبإمكاني في حالات عديدة"، على حدّ تعبيره، "تحديد هذه العيوب بالدقّة الكافية". من هنا أن إعادة الوحدة المسيحية، لديه، هي، ببساطة، "الهداية الجامعة إلى الأرثوذكسية". ويؤكّد الأب فلوروفسكي، في هذا الإتجاه، أنه ليس له ولاء طائفي. ولاؤه، حصراً، هو للكنيسة الواحدة المقدّسة[٤]. من هذا المنطلق يبدي أنه لا يحكم البتّة على أحد "أنه خارج الكنيسة" لأن الدينونة معطاة للابن. "ليس أحد مخوّلاً باستباق الدينونة". ولكنْ هذا لا يمنع ولا يتعارض البتّة مع كون الكنيسة صاحبة سلطان في التاريخ هو أولاً "سلطان التعليم وحفظ كلمة الله بأمانة"[٥].

---

[١] فلوروفسكي، الأب جورج. مجموعة أعماله (بالإنكليزية) الجزء ١٣. الكنيسة الحقّ. ص ١٣٤.
[٢] فلوروفسكي، الجزء ١٣، إشكالية إعادة توحيد المسيحية ص ١٤.
[٣] المصدر عينه ص ص ١٤ – ١٥.
[٤] فلوروفسكي، الجزء ١٣. المسكونية منظور شرقي أرثوذكسي ص ١٣٤ وكذلك البحث عن الوحدة المسيحية والكنيسة الأرثوذكسية ص ص ١٣٩ – ١٤٠.
[٥] فلوروفسكي، الجزء ١٣. الكنيسة الحقّ. ص ١٣٤.

لِمَ انخراطنا في الحركة المسكونية؟

بديهي، في ضوء ما تقدّم، أن هناك قاعدة إيمان ونظام يصفها الأب فلوروفسكي بـ"القاعدة السويّة". ما لا يتّفق وهذه القاعدة هو غير سويّ. وغير السويّ ليس فقط برسم الإدانة بل برسم المعالجة أيضاً. "هذا"، بكلمات الأب فلوروفسكي، "تبرير لاشتراك الأرثوذكسي في الحوار المسكوني على الرجاء أنه من خلال شهادة حقّ الله يمكن كسبُ القلوب والعقول البشرية"[٦]. أما الغرض الآني من العمل المسكوني فهو التخلّص من الأحكام المسبقة وقصر النظر والاقتراب معاً "من فهم المعنى الحقيقي للانشقاقات الحاصلة وجذورها وأسبابها الحقيقية". والأب فلوروفسكي يعتبر الإشتراك في الحركة المسكونية عملاً رسولياً. فإن "الكنيسة الأرثوذكسية"، على حدّ تعبيره، "مدعوّة، بخاصة، إلى لعب دور في تبادل الأفكار مسكونياً، بالضبط لأنها تعي دورها كحافظة للإيمان الرسولي والتراث في هيئتهما الكلية المتكاملة". ويتحدّث عن وعي الأرثوذكسية كونها ممسكة "بكنز النعمة الإلهية من خلال استمرار الخدمة والتسلسل الرسولي". لذلك لها، من هذا المنطلق، "مكانة خاصة وسط المسيحية المقسّمة"[٧]. كذلك يبدي أنه قد يكون مفيداً لنا جميعاً "أن نعيد تكامل القطع التي لنا من التقليد المسيحي المشوّه في تركيب جديد يشكّل، في آن، استعادة للوجدان المشترك للكنيسة العريقة"[٨]. ويخلص إلى أن التماس الوحدة أو إعادة الوحدة ضرورة والوحدة أمر إلهي. "الانقسام المسيحي لا يعني أقلّ من إخفاق المسيحيّين في أن يكونوا مسيحيّين حقيقيّين... حتى لو كان الواحد في موقع ملء الحقّ... لأنه ليس مسموحاً لأحد أن يكون حراً من المسؤولية عن الآخرين"[٩].

العلّة والعلاج المرتجى

علّة الانقسام في العالم المسيحي، العلّة التي هي أم كل علّة أن هناك تبايناً بيننا في النظرة إلى الحقّ. لذلك "اللاهوت السليم"، بكلام الأب جورج فلوروفسكي، "هو الأساس الوحيد المكين للوحدة المسيحية. هو الأداة الوحيدة لخلق فهم حقيقي..."[١٠]. هذا لا يعني اتفاقاً في الصيغ ودستور الإيمان وحسب. الانقسام الحاصل أعمق من ذلك لأنه "انقسام في الإيمان، في خبرة الإيمان بالذات"[١١]. الوجدان الواحد مفتقد. الفكر ليس واحداً. قراءتنا ليست واحدة. لذلك، بحسب الأب فلوروفسكي، لا نتغلّب على الانقسام إلاّ "بقدر ما نتغلّب عليه من خلال الاتفاق ووحدة الفكر – من خلال الاستنارة

---

[٦] المصدر عينه ص ١٣٥.
[٧] فلوروفسكي، الجزء ١٣. المساهمة الأرثوذكسية في الحركة المسكونية ص ١٦٠.
[٨] فلوروفسكي، الجزء ١٣. التوتّر اللاهوتي بين المسيحيّين ص ١٢.
[٩] فلوروفسكي، الجزء ١٣. أغراض وشكوك مسكونية ص ٢٤.
[١٠] فلوروفسكي، الجزء ١٣. الحاجة إلى الصبر ص ٢١.
[١١] فلوروفسكي، الجزء ١٣. إشكالية إعادة توحيد المسيحية ص ١٦.

الروحيّة، في وحدة الحق"[١٢]. وفي موضع آخر يقول إنه "فقط بالعودة إلى الفكر المشترك للكنيسة الأولى يمكن التغلّب على الانقسامات". صحيح أنه لم يكن هناك تماثل لدى القدامى ولكن "كان هناك فكر مشترك"[١٣].

سبيل ينبغي تجنّبه

هذا ويبدي فلوروفسكي أن مواجهة الخلافات كما هي، بواقعية، خطوة أساسية في الاتجاه السليم. علينا أن نعترف بأن خلافاتنا "عديدة ومتأصلة وجذرية". بإزاء ذلك لا مجال للمساومة. واقعنا نواجهه، بالأحرى، "بصراحة وشجاعة، بلا تحفّظ ولا مراوغة، بثقة وأمانة". أجل الانقسام الحاصل عميق. لذلك الاختزال والطرق السهلة لا تنفع. "على المرء أن يكون شجاعاً بما فيه الكفاية لمواجهة تحدّي المأساة المسيحية". علينا أن نعمل على إزالة حجارة العثرة لا أن نكتفي بتجاهلها أو تجنّبها"[١٤]. ما نتشوّف إليه هو "الإجماع اللاهوتي العميق". "هذا وحده يضمن صحوة حقيقية في الوعي المسكوني". أما البحث عن الحد الأدنى المشترك فلا قيمة له على الإطلاق[١٥].

مزالق ينبغي الحذر منها

١. اعتبار اللاهوت مسؤولاً عن التوتّر والانقسام في الكنيسة. "الدين والعقيدة (وأعني بذلك اللاهوت) لا زالا، في العادة، يُجعلان في تضاد". ثمّة ميل كبير إلى الاعتماد، بالأحرى، على الخبرة الدينية المباشرة، على التقوى من دون العقيدة. في تقييم الأب جورج فلوروفسكي أننا في الخبرة الدينية المباشرة نواجه "تنوّعاً يائساً" في الخبرة الدينية لا يقبل التكامل ولا يؤمّن أية وحدة على الإطلاق. بكلمات الأب فلوروفسكي: "حرّية الخبرة الدينية المباشرة هي العامل الأكثر إحداثاً للانقسام والأكثر عبثاً بحياتنا الروحيّة. الوحدة والإتفاق لا يمكن تحقيقهما إلاّ على صعيد العقيدة... تاريخياً اللاهوت دواء يحفظ من الشواش البالغ للخبرة الحرّة... العقيدة خارطة... ليست نظاماً قائماً بذاته يمكن أن يحلّ محلّ الخبرة بل هي خارطة ومرشد ورفيق للمسافر"[١٦]. وفي مقال يأخذ فيه فلوروفسكي على المؤمنين الأرثوذكس الروس قلّة اهتمامهم بالعقيدة، يبدي أن عقيدة الآباء هي نبع الأرثوذكسية في الحياة وأنه لا فصل عندهم بين "الروحانية" و "اللاهوت". القداسة في التراث الأرثوذكسي دائماً ما تفسّر لاهوتياً، في فئات الرصانة والأمانة للحقّ. على ذلك يؤكّد أن شواش الحياة المعاصرة مردّه، مباشرة، "إهمال التعليم الصحيح"[١٧]. في هذا الإطار أيضاً، يشير إلى أن ثمّة نزعة خطرة جداً في الحركة

---

[١٢] المصدر عينه.

[١٣] المصدر عينه ص ١٣.

[١٤] فلوروفسكي، الجزء ١٤. اشتراكي الشخصي في الحركة المسكونية ص ١٧١ – ١٧٢.

[١٥] فلوروفسكي، الجزء ١٣. أغراض وشكوك مسكونية ص ٢٦.

[١٦] فلوروفسكي، الجزء ١٣. إشكالية إعادة توحيد المسيحية ص ٩ – ١٠.

[١٧] فلوروفسكي، الجزء ١٣. انتقاد القصور في الاهتمام بالعقيدة بين المؤمنين الأرثوذكس الروس. ص ص ١٦٩ – ١٧٠.

المسكونية إلى الإقلال من أهمية "الخلافات الفكرية" أو حتى تجاهلها. لذا يُصار، أحياناً كثيرة، إلى الطعن في أهلية أساتذة اللاهوت من حيث إنهم "باقة من الناس يخلقون تعقيدات لا لزوم لها"[١٨]. هذه النزعة، بنظر الأب فلوروفسكي، تعيق التقدّم في مسار الإعادة الحقيقية للوحدة. ويخلص إلى أن "اللاهوت السليم هو الأساس الأمين الوحيد للوحدة المسيحية وهو السبيل الوحيد لخلق تفاهم حقيقي"[١٩].

٢ ٠ الحذر من الإفراط في الحداثة في تعاطي الأمور. هذا، في المواقف والتوجّه، بنظر الأب جورج فلوروفسكي، يحول دون وصولنا إلى أساسات الإيمان المسيحي والواقع التراثي الذي يُصار إلى اعتباره مهجوراً مماتاً. "على المرء أن يستعيد المنظور التاريخي الحقيقي لا أن يُستأسَر مقعَداً إلى حداثة منعزلة"[٢٠].

٣ ٠ تعاطي موضوع الانقسام وكأنه موضوع أخلاقي بحت. ليست القضية قضية سلام أو تسامح وحسب. لسنا، هنا، في صدد مواجهة مسألة تتعلّق بالانحراف الأخلاقي أو الضعف البشري. "المنشأ الأول للانقسامات المسيحية"، بكلام فلوروفسكي، "...هو الوهم... اختلاف الآراء في شأن الحقّ". لذا دائماً ما تفضي الأخلاقية، في طرح المسائل اللاهوتية، إلى ضرب من عقائدية الحدّ الأدنى إن لم يكن إلى رفض عقائدي. "مثل هذه الأخلاقية"، بنظر الأب فلوروفسكي، "تتغذّى أو تنشأ من نوع من اللاحسّ أو اللامبالاة العقائدية أو قصر النظر"[٢١].

٤ ٠ إحداث تضاد غير طبيعي بين الحقّ والمحبّة واعتبار المسألة، في أساسها، سوء تفاهم مردّه النقص في المحبّة الأخوية. هنا يوضح الأب فلوروفسكي أنه "لا يصار إلى التغلّب على الانقسام باللطف والمحبّة الأخوية بقدر ما يُصار إلى التغلّب عليه بالاتفاق ووحدة الفكر". المحبّة التي توحّد أساسها وحدة الإيمان. فقط في الحقّ لا من دونه هناك محبّة حقيقية روحية لا مجرّد عاطفية عابرة[٢٢]. صحيح أن مصدر الانقسام هو النقص في المحبّة ولكنْ محبّتنا لله[٢٣]، معرفتنا به، معاينتنا له. وبعدم معرفتنا للآب السماوي لا نعود نعرف أو نتبيّن إخوتنا.

٥ ٠ "اختزال الوحدة المسيحية بقصرها على أبعاد التعاون في المسائل العملانية"[٢٤]. الحركة المسكونية مجرّبة بانتهاج هذه القادومية مسلكاً. من أول الطريق كان هناك شعار طُرح بقوّة في ستوكهولم، سنة ١٩٢٥ "ان العقيدة تفرِّق والخدمة توحّد". لا يجد الأب فلوروفسكي غضاضة في التعاون والتضامن في المسائل العملانية. هذه أيضاً مساهمة في الوحدة المسيحية. الخطر يتمثّل في حجم هذا التعاون والغرض منه، ألاّ يحلّ الهاجس العملاني محلّ الهمّ اللاهوتي وان يبقى، بصدق

---

[١٨] فلوروفسكي، الجزء ١٣. الحاجة إلى الصبر ص ٢١.
[١٩] المصدر عينه.
[٢٠] فلوروفسكي، الجزء ١٤. اشتراكي الشخصي في الحركة المسكونية ص ١٧٢.
[٢١] فلوروفسكي، الجزء ١٣. إشكالية إعادة توحيد المسيحية ص ١٥ – ١٦.
[٢٢] المصدر عينه ص ١٦ – ١٧.
[٢٣] المصدر عينه.
[٢٤] فلوروفسكي، الجزء ١٣. اشتراكي الشخصي في الحركة المسكونية ص ١٧١.

وأمانة، مجرّد عامل مساعد على التلاقي العقائدي. بغير ذلك يمكن لهذا التعاون أن يشكل عائقاً دون البحث الحقيقي عن الوحدة. مرّة أخرى يؤكّد فلوروفسكي أن جذر الانشقاق ذو طبيعة عقدية وهو أعمق بكثيرمن مجرّد "التغرّب التاريخي أو العزلة المتبادلة". لذلك يستخلص "ان التعاون الفعّال بين المسيحيّين المنقسمين في القضايا الاجتماعية أو في حقل المسائل الدولية دون أي إلحاح عميق في ابتغاء اتحاد أقصى في كنيسة واحدة، لا يمكن إلاّ أن يُعتم أو حتى يُفسد الرؤية بشأن "الوحدة المسيحية" الحقيقية التي هي وحدة في الإيمان والنظام ووحدة الكنيسة وفي الكنيسة".

٦ . الحذر من تعاطي الشهادة للأرثوذكسية أيديولوجياً، كمذهب فكري. هذا يكون شهادة للحقّ في معرض الباطل. "في الحقيقة"، بكلام الأب فلوروفسكي، "قبل أن نتمكّن من الكرازة بالأرثوذكسية الحقّ للعالم علينا أن نكون نحن، أنفسنا، أرثوذكسيّين بالفعل. فهل نحن كذلك؟ "ما هو حاصل أو ما نقع فيه، أحياناً كثيرة، هو أننا نلتمس مجداً في الميراث الذي خلّفه لنا آباؤنا، ولكنْ الخشية دائماً هي أن "نتعاطى هذا الميراث ببلادة""[٢٥].

٧ . الحذر من تخطّي حدود الواقعية الكنسية في التاريخ. إن لم يبنِ الرب البيت فباطلاً يتعب البنّاؤون. المعرفة والفهم والرؤيا الكاملة محفوظة ليوم الدين. "ولكن، أقلّه"، بكلام الأب فلوروفسكي، "ان معرفة وجهة السير موفورة للكنيسة، منذ الآن، في حجّها الأرضي. أن نستعيد الإحساس بوجهة السير هو الواجب الأول للحركة المسكونية في الوقت الحاضر". علينا أن نقرّ بأن الهدف بعيد المنال والطريق ضيّق لكن مرشداً أكيداً لا يخطئ معطى لكل الذين يبحثون بتواضع وتفان وهو المعزّي، روح الحقّ. هو يقود المؤمنين إلى ملء الحقّ"[٢٦].

في ضوء ما تقدّم

الأب جورج فلوروفسكي، في ضوء ما تقدّم، قال، في الشأن المسكوني، قول الكنيسة برمّتها.

طبعاً الكلام على المسكونية يطال كل ما يمتّ، من جهتنا، إلى العلاقة بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس الأخرى، سواء في مستوى الرؤساء أو اللاهوتيّين أو عامة المؤمنين، في إطار مجالس وهيئات تقام هناك وهناك ومن دونها. نحن، إذاً، لا نتحدّث عن جسم واحد من العلاقات بل عن أجسام تتفاوت في الجدّية والرصانة، بحسب الهيئات والأمكنة والأزمنة. يبقى أن ثمّة ملامح تعكسها المناخاتُ المسكونية بعامة، خصوصاً في أوساطنا. هذا ما نقتصر عليه في هذا البحث.

يلاحظ المرء في قراءته لفلوروفسكي أن الحركة المسكونية حتى الخمسينات كانت وعداً طيّباً للإيجابيات التي استبانت في فهم السلبيات بين الكنائس وللدراسات التي أُجريت في الشؤون الكتابية

---

[٢٥] فلوروفسكي، الجزء ١٣. مسؤولية الأرثوذكسيّين في أميركا ص ١٧٥.
[٢٦] فلوروفسكي، الجزء ١٣. مأساة الانقسامات المسيحية ص ٣٣.

والتاريخية والعقدية وسواها وللحوارات الصريحة التي أُقيمت[٢٧]. على ذلك لسنا، في هذا المقام، في معرض الطعن بالشأن المسكوني في المبدأ. العلاقات المسكونية جانب أساسي بديهي من حياتنا وشهادتنا في الكنيسة الأرثوذكسية لا غنى عنه. تساؤلاتنا تتناول نمط المسكونية الذي نريد، تمييز القويم من غير القويم وفرز غير المقبول لأنه يسيء، في العمق، لا إلى إخوتنا غير الأرثوذكسيّين وحسب، بل إلى استقامة انتمائنا نحن إلى الكنيسة الواحدة الجامعة المقدّسة الرسولية.

إذاً، الحركة المسكونية، في هذا الإطار، كما استقرأناها في فكر الأب فلوروفسكي، هي حركة لاهوتية أولاً وأخيراً، والشأن المسكوني، لكي يكون ناجعاً، ينبغي أن يطال، في أساسه، الشأن العقدي. فهمنا للحقيقة ليس واحداً وخبرتنا أيضاً، لذلك إيماننا ليس واحداً. فحوار العقيدة، في إطار "المسكونية في الزمن"، أي بالعودة إلى تراث الكنيسة، بحسب تعبير الأب فلوروفسكي، هو منطلق العلاقات المسكونية ومآلها. فقط الهمّ اللاهوتي يبرِّر، من ناحيتنا، الحركة المسكونية. كل عمل، على كل صعيد آخر، يُفترض به أن يصبّ، بأمانة، في هذا المحور الأساس ويساعد فيه وإلاّ يساهم في تحويل الأنظار عن الحوار العقدي، وتالياً في تعطيل المسعى الوحدوي وتحويله في اتجاه آخر غير الاتجاه المحدّد له بدءاً. دور الكنيسة الأرثوذكسية هنا دور رسولي لأنها حاملة وجدان الكنيسة الرسولية بامتياز ولها سلطان في شأن التعليم القويم ولو لم تكن "الكنيسة الحقّ"، بتعبير فلوروفسكي، هي "إلى الآن الكنيسة الكاملة"[٢٨].

قراءتنا للعديد من المعطيات المسكونية، في ضوء ما تقدّم، تعطينا الانطباع أن ما يجري اليوم غير ما تطلّع إليه فلوروفسكي وجيله. لا زال الكلام اللاهوتي في التداول ولكن لا يبدو لنا أن الهاجس اللاهوتي هو، بعد، محور الاهتمام. ثمّة تحوّل حدث ويحدث.

قراءتنا لما يجري

عندما نقرأ عن كنيستين عريقتين، إحداهما في مركز القوّة والأخرى في مركز الضعف، الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكنيسة السريانية الأرثوذكسية الأنطاكية، أنهما أصدرتا بتاريخ ٢٣ حزيران ١٩٨٤، في حاضرة الفاتيكان، بياناً مشتركاً أبدتا فيه أن "الالتباسات والانشقاقات التي طرأت على كنيستيهما في العصور التالية [لمجمع نيقية ٣٢٥ م] تبدو في نظرهما اليوم لا تؤثّر في جوهر إيمانهما أو تمسّه ما دامت تلك الأمور لم تنشأ إلاّ بسبب المفارقات في التعابير الاصطلاحية والثقافية وبواقع الصيغ التي كانت المدارس اللاهوتية المختلفة الاتجاهات قد تبنّتها للتعبير عن الأمر الواحد. بناء على ذلك نرى اليوم أنه لا أساس حقيقي لتلك الانقسامات المؤلمة والانشقاقات التي نشأت عنها حول عقيدة سرّ التجسّد". عندما يصدر بيان كهذا عن كنيستين انقطعت الشركة بينهما خمسة عشر قرناً، وذلك دون مباحثات لاهوتية عميقة تُذكر، فهذا يُلقينا في الشكّ والتسآل في شأن القيمة التي

---

[٢٧] فلوروفسكي، الجزء ١٤. مجلس الكنائس العالمي ص ١٨٩.
[٢٨] فلوروفسكي، الجزء ١٣. المسكونية. منظور شرقي أرثوذكسي ص ١٣٤.

يوليانها الحوار العقدي الجدّي ووحدة الإيمان وتالياً الهاجس اللاهوتي. كذلك يحضرنا قول معبّر للأب متّى المسكين يقول فيه: "إن عرض الوحدة المسيحية على كنيسة ضعيفة تواجه ظلماً أو اضطهاداً أو فقراً... تجربة خطرة إذ ينبّه فيها اللاشعور لإيقاظ غريزة التكتّل لمواجهة الخطر الذي يقلقها... عرض الوحدة المسيحية على كنيسة تواجه عوامل مضادة امتحان لضميرها أقسى من الاضطهاد الذي تعانيه ألف مرّة"[٢٩].

عندما يطالعنا خطاب[٣٠] لأحد البطاركة الشرقيّين، خلال العام ١٩٨٣، في كاتدرائية نوتردام الباريسية "ان التباين بين الأرثوذكسية والكثلكة ليس عقائدياً... ونحن قادرون على الوحدة مع روما لأننا أوفياء وبعناد لجذورنا" يتبادر إلى ذهننا أحد أمرين: إما أن آباءنا القدّيسين كانوا في الضلال وإما أن الأسلوب المتّبع اليوم، في الحوار المسكوني، يميل إلى الإلغاء العقدي.

عندما نسمع أحد الرؤساء الناشطين في الحركة المسكونية يقول معترضاً: "من أين أتانا مرقس أسقف أفسس، في آخر هذا الزمن؟ لولاه لكنّا اتّحدنا بكنيسة روما وانتهينا!"[٣١] لا يعود بإمكاننا أن نصدّق أن العقيدة الأرثوذكسية التي انحدرت إلينا من الرسل والآباء القدّيسين ذات وزن محوري، فعلاً، في التطلّعات المسكونية الجامعة اليوم.

عندما تُبذل الجهود لتبييض صفحة كنيسة روما والشرقيّين القدامى والنساطرة بحيث يُعتبر إيمانهم، في جوهره، قويماً لا يسعنا سوى أن نتساءل: ألأن إيمانهم قويم – وهو ما لم تلاحظه الكنيسة المقدّسة ولا عكسته مواقف الآباء القدّيسين طيلة قرون بل شهدت لعكسه – أم لأن نيّة تبييض صفحتهم سبّاقة يُعمل على التوفيق بين ما يقولون؟

عندما نلاحظ أن لفظة "هرطقة" باتت محرّمة (Taboo) وأُخرجت من التداول في مجال العلاقات المسكونية، حتى مجرّد التفكير بأن الكنائس غير الأرثوذكسية تحتضن الهرطقة لم يعد وارداً، إذ ذاك يتكوّن لدينا الانطباع أن الاتجاه في الممارسات المسكونية هو إلى التغاضي عن الحقائق المرّة وتسمية الأمور بغير أسمائها، إما استغراقاً في مراعاة مشاعر الآخرين وإما تخفيفاً من وطأة مأساة الانشقاق الكنسي إيهاماً. غير صحيح أن الهرطقة مجرّد اختلاف في وجهات النظر أو تباين في طرق التعبير عن حقيقة واحدة. الهرطقة مرض. الهرطقة ضلال. الهرطقة انقطاع عن الله. هذا إذا كانت العقيدة لدينا – كما يفترض بها أن تكون – إيقونة عمل الروح القدس في كنيسة المسيح وخارطة الخلاص وعلاج الانقسام وإسّ الوحدة وهي أغلى من حياتنا[٣٢] لأنها حياتنا الجديدة. أنت لا تقول لأخيك أو عن أخيك – إذا أردت أن تراعيه والمراعاة واجبة لعلاقات سلسة! – أنت مصاب بالأنفلونزا وتعالجه على هذا الأساس فيما هو مصاب بالسرطان! على مَن نكذب في نهاية المطاف؟! هل الموضوع أن نظهر محبّين

---

[٢٩] الأب متّى المسكين، الوحدة المسيحية، طبعة ١٩٧٨ ص ١٦.

[٣٠] ورد في صحيفة "الأنوار" واستعرناه من كتاب ١٤٥٣: محمد الثاني يفرض الانشقاق الأرثوذكسي للينا المر نعمة، ٢٠٠٣، مطلع الكتاب.

[٣١] حديث شخصي جرى للكاتب مع أحد الرؤساء.

[٣٢] المطران جورج خضر، نشرة "رعيّتي".

أم أن نكون محبّين؟ وهل هناك محبّة في غير الحقّ؟ إذا كانت المجامع المقدّسة والآباء القدّيسون وصلوات الكنيسة قد قطعت، عبر كل تاريخها، ديوسكوروس وساويروس[٣٣]، مثلاً، لتعليمهما الفاسد، ألا يكون ما علّماه وما تُعلمه الكنائس التي تبعتهما، هرطقة!؟ إذا كان القدّيس مرقص أسقف أفسس لم يتردّد في القول، إجابة على سؤال وُجّه إليه، أن الكنيسة الكاثوليكية تحتضن الهرطقة[٣٤] في تعليمها لأن الهرطقة، بحسب الشرع الكنسي، هي الحيدان عن الإيمان القويم ولو قليلاً[٣٥]، إذا كانت الكنيسة المقدّسة تنسب الهرطقة إلى هذه أو تلك من الكنائس الأخرى فما معنى أن نغض نحن الطرف عمّا يقولون ونبرّر أصحاب الهرطقات وكأن في الأمر سوء تفاهم وحسب، ما معنى ذلك سوى أننا نجعل أنفسنا فوق آباء الكنيسة ونسمهم، بصورة غير مباشرة، بقلّة الإدراك ونقطع، تالياً، أنفسنا عنهم؟ إلامَ ننتمي بعد ذلك غير إلى أفكارنا وظنوننا وأوهامنا؟! إذا لم تكن كنيسة الآباء كنيستنا فأية كنيسة تبقى لنا؟! وإذا أمعنّا في إعادة قراءة ميراث الآباء في ضوء المستجدات فخشيتنا أن تفسد قراءتنا لهم. أليس الأجدى أن نقرأ الحديث في ضوء القديم؟

عندما نقف على التصريحين المشتركين اللذين صدرا عن هيئة الحوار بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس الشرقية المسمّاة غير خلقيدونية في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات من القرن العشرين، بعد حوار استمرّ منذ العام ١٩٦٤ (آرهوس، الدانمارك)، وبعد أن نقرأ، مثلاً، في التصريح الثاني (١٩٩٠) في الفقرة ٩: "...لقد فهمنا الآن أن عائلتينا حافظتا بأمانة دوماً على نفس الإيمان الخريستولوجي [المسيحاني] الأرثوذكسي الحقيقي ووحدتا استمرارية الإيمان الرسولي المنقطعة، رغم أنهما استعملتا ألفاظاً خريستولوجية استعمالاً مختلفاً. هذا الإيمان المشترك وهذا الوفاء المستمر للتقليد الرسولي هما ما يجب أن يكون في أساس وحدتنا وشركتنا"[٣٦]. ثم بعد أن نقرأ ما كتبه العلاّمة الآبائي الأرثوذكسي جان كلود لارشيه، وما أثبته بالنصوص الآبائية مبيِّناً ما أسماه "الالتباسات والتناقضات والثغرات والنواقص التي يتضمّنها التصريحان المشتركان وكذلك مشروع الاتحاد في شكله الراهن"[٣٧]. بعد أن نقرأ هذا وذاك لا يسعنا سوى أن نقف متسائلين: كيف يمكن لأمر يصوّره المتحاورون من العائلتين الكنسيّتين أشبه ما يكون بالبديهية أو الإكتشاف[٣٨] أن يكون مشكوكاً فيه بالقدر وعلى النحو الذي أبرزه لارشيه؟ لا يمكننا، والحال هذه، إلاّ أن تستنتج أن الحقيقة لم تُقل كلّها، عن قصد أو عن غير قصد، الله أعلم! ولكنْ تلفتنا قولة لارشيه في شأن ما أسماه "تقنيّة مجرّبة

---

[٣٣] أبوان قدّيسان لدى الكنائس الشرقية القديمة (السريان والأرمن والأقباط والأحباش...)

[٣٤] القدّيس مرقص أسقف أفسس، رسالة إلى كل المسيحيّين الأرثوذكسيّين Basleiade, Concilium Florentinum ص ١٢٢.

[٣٥] سيرة أعمدة الأرثوذكسية. (بالإنكليزية). صادر عن دير الرسل القدّيسين، ١٩٩٠ ص ٤٨٨.

[٣٦] المسألة المسيحانية، جان كلود لارشيه، منقول إلى العربية ومنشور في "أوراق ديرية"، عائلة الثالوث القدّوس، دوما، ٢٠٠٤، ص ٧٢.

[٣٧] المصدر عينه ص ٨.

[٣٨] في آرهوس صدر بيان مشترك اعترف، حتى قبل انطلاق الحوار بين الفريقين، "انه في كل من كنيستينا قائم إيمان الكنيسة الأرثوذكسي الوحيد. ولم يتمكّن خمسة عشر قرناً أن يحرّفنا عن إيمان آبائنا... فاستناداً إلى جوهر العقيدة الخريستولوجية [المسيحانية]، استمرّ تقليدانا في أن يكونا على اتفاق تام وعميق مع التقليد الجامع للكنيسة الواحدة غير المنقسمة" (راجع "أوراق ديرية". العدد ٧. سنة ٢٠٠٤. المسألة المسيحانية. ص ٧٣).

في مجال العلاقات المسكونية"[٣٩] اعتمُدت للتحكّم بسير المشاورات. عن هذه التقنيّة قال: "المقصود هو تقديم نقاط الاتفاق بشكل عام وبما أمكن من الإيجاز وكتمان نقاط الاختلاف"[٤٠].

أيضاً، عندما نقرأ، في صدد حوار الكنيسة الأرثوذكسية مع الكنائس الشرقية القديمة، ما أبانه التصريح المشترك الثاني في الفقرة الثامنة: "تقتبل العائلتان ثلاثة المجامع المسكونية الأولى التي تشكّل ميراثنا المشترك. أما فيما خصّ مجامع الكنيسة الأرثوذكسية الأربعة اللاحقة، فيؤكّد الأرثوذكسيون أنه بالنسبة لهم تُعدّ النقاط ١ – ٧... تعليم هذه المجامع الأربعة اللاحقة، فيما يعتبر الشرقيون الأرثوذكسيون تأكيد الأرثوذكسيّين هذا بمثابة تفسير يختصّ بهم..."[٤١]، عندما نقرأ ذلك نستنتج أنّ الشرقيّين القدامى يريدون والأرثوذكسيّين يقبلون أن تكون "تعاريف وقرارات المجامع المسكونية القانونية [بغير ذات] قيم معيارية جامعة تلتزم بها كل الكنائس وكل المؤمنين". وهذا معناه أيضاً "أنه يمكن لهذه الكنيسة أو تلك، بشكل شرعي، أن تعترف بها كآراء أو كمواقف خاصة لا تلزم إلاّ الذي يعتمدها. إننا هنا أمام تمام النسبيّة"[٤٢]. عندما نطّلع على تلك الفقرة من التصريح وعلى ما يستنتجه جان كلود لارشيه منها، نتساءل ألا يعني القول بالفقرة الثامنة تلك أن الأرثوذكسيّين قد تخلّوا، عملياً، عن المجامع الأربعة اللاحقة؟ ألا يعني ذلك أنهم قبلوا أن يكون هناك فهم آخر غير فهم آباء المجامع المسكونية اللاحقة للمجامع الثلاثة الأولى؟ وطالما الأمر كذلك فكيف تُحسب المجامع المسكونية الثلاثة الأولى بعدُ مشتركة بين العائلتين؟ هل الموضوع موضوع نصوص واحدة وحسب أم موضوع فهم واحد لها أيضاً؟

عندما نقرأ، في شأن الكتاب المسيحي الموحّد في التعليم الرسمي في لبنان، ما ورد في نشرة "رعيّتي"[٤٣] عن البطاركة إنهم "رأوا أن توحيد القلوب يقتضي توحيد الكتاب المسيحي ليأتي مضمونه مقبولاً عند الجميع. وإذا كانت هناك فروق رئيسية تُوضع في الحاشية بحيث يحسّ الأولاد إنهم ينتمون إلى مسيحية واحدة هي في جوهرها مسيحية الكنائس الرسولية ولا يتفرّقون شيعاً أو فرقاً تتصادم..." عندما نقرأ ما قيل في هذا الشأن، لا يسعنا إلاّ أن نلاحظ أن هذه ليست لغة كنسية بل لغة براغماتية تهتمّ بالمسائل العملانية دون أن تهتمّ بضبطها ضبطاً وافياً، بالفكر الذي يُفترض أن تنتمي إليه. ألنا الحقّ في أن نعطي الأولاد الانطباع بأنهم ينتمون إلى مسيحية واحدة وهم ليسوا كذلك؟ ألا يكون ذلك عملاً إيهامياً نفسياً؟ ثم ما هذا الكلام على مسيحية واحدة جوهرها مسيحية الكنائس الرسولية؟ كل الكنيسة الأرثوذكسية رسولية. ليست الرسولية حقبة تاريخية بل فهم قويم لما انحدر إلينا من الرسل. والقول بإمكان وضع مسائل عقدية نعتبرها أساسية في الحاشية وكأنها خصوصيات لا تهمّ إلاّ أصحابها منطق غير كنسي. أية صورة نرغب في تمريرها، بعد ذلك، إلى الأولاد وإلى الأجيال القادمة؟ خشيتنا أن ثمّة وجداناً مسكونياً بات هو قطب اهتمامنا في سعينا التربوي دون

---

[٣٩] المصدر عينه ص ٨.
[٤٠] المصدر عينه.
[٤١] المصدر عينه ص ٧٤.
[٤٢] المصدر عينه ص ٧٥.
[٤٣] "رعيّتي"، العدد ٤٤، ٣١ تشرين الأول ٢٠٠٤.

وجدان الكنيسة التراثي. ذاك نقول عنه إنه وجدان الكنيسة الأصيل وليس هو كذلك.

عندما نقرأ أن "الوحدة تتمّ بالاتفاق أولاً في الإيمان وتُتوَّج أنذاك... بالمشاركة بالأسرار، وخاصة سرّ الشكر... وأن سرّ الشكر (المناولة) ليس وسيلة من أجل الوحدة بل هو الغاية ذاتها"[٤٤]، عندما نقرأ ذلك ونرى، في المقابل، تسيّباً شبه كامل في تعاطي القدسات: غير الأرثوذكسيّين يساهمون القدسات عندنا وأولادنا يساهمون القدسات عند غيرنا بلا حرج وعلى أوسع نطاق وليس تدبير عملي يتّخذه الرؤساء، لا من قريب ولا من بعيد، لوضع حدّ للتسيّب الحاصل، لا يسعنا سوى أن نستنتج أن تمسّكنا بوحدة الإيمان أساساً للمشاركة بالأسرار تمسّك لفظي فيما تشير الممارسة إلى أمر من ثلاثة أمور: إما اللامبالاة وإما الرضوخ للأمر الواقع وإما الرضى الضمني بما يجري. في هذا الخضم، لا تعود هناك للعقيدة أو لوحدة الإيمان، قيمة تُذكر. الكلام يبقى في مراقيه العليا فيما تجري الممارسات في مراقيها الدنيا وكأن لا علاقة بين الإثنين قائمة.

عندما نرى المسؤولين يتحدّثون، رسمياً، عن كون سرّ الشكر (المناولة) غير جائز إلاّ على أساس وحدة الإيمان، ثم يفسحون في المجال لكل خلطة في الصلاة وغير الأرثوذكسيّين، نتساءل بأي حقّ يُفرز سرّ الشكر عن الصلاة والخِلطة الكنسيّة بحيث يُعتبر كل شيء مباحاً إلاّ المناولة المشتركة؟ أليس أن الكنيسة التي قالت في المجمع المسكوني الثاني (القانون الأول) "إن كل هرطقة ينبغي قطعها" قالت أيضاً في مجمع اللاذقية (القانون ٣٣): "لا يجوز الاشتراك مع الهراطقة في الصلاة ولا مع المنشقّين"؟ ثم ألم يقل القانون ٤٥ من قوانين الرسل القدّيسين إنه "إذا صلّى أسقف أو كاهن أو شمّاس مع الهراطقة فليكن مفروزاً... وإذا صلّى أحد مع المقطوع عن الشركة، حتى لو في منزل، فليكن هو نفسه مقطوعاً"؟ إذا كانت القوانين المقدّسة هي الحافظة المقدّسة للعقائد المقدّسة[٤٥] فأية عقيدة نحافظ عليها بعدُ ما دمنا في حال التسيّب القانوني هذا؟

عندما نقرأ عن اجتماع حصل في حلب، بين ٥ – ١٠ آذار ١٩٩٧، برعاية مجلس الكنائس العالمي ومجلس كنائس الشرق الأوسط، بين ممثّلين من كنائس مختلفة بشأن توحيد التعييد للفصح المقدّس لا يسعنا سوى أن نستنتج أن القوم يبحثون عن أساس للاتحاد بين الكنائس غير الأساس العقدي وأنهم يبنون سعيهم على أساس روح التكتّل معتبرين توحيد الفصح "مطلباً شعبياً". ماذا يطلب العوام أكثر من ذلك ما دام الناس في غير وارد العقيدة والفروقات العقدية ودقائق العقيدة؟

إذا كان أسقف أرثوذكسي يعطي أسقفاً غير أرثوذكسي أن يحمل عصاه ليقرأ الإنجيل المقدّس من الباب الملوكي، وإذا كان أسقف أرثوذكسي يعطي أسقفاً غير أرثوذكسي أن يلبس الأوموفوري الأرثوذكسي ليتسنّى له أن يقرأ الإنجيل في خدمة الهجمة في الفصح وهذا الأسقف لا يُساءَل ولا يُلاحَق فلا يسعنا إلاّ أن نستخلص أن اللاهوت الكنائساني يتحوّل في الممارسة إلى وقود للياقات والمجاملات بين الناس!

---

[٤٤] الدليل الرعائي إلى الأسرار، ١٩٩٦، ص ٨٢.

[٤٥] بوبوفيتش، القدّيس يوستينوس، المجموعة العقائدية، الجزء ٤ (بالفرنسية)، ١٩٩٧، ص ١٩٨.

وإذا كان أسقف أرثوذكسي يسير وراء أحد كهنته، في خميس الجسد الذي يزيّح فيه الكاثوليك القرابين، والكاهن حاملاً الكأس المقدّسة يتقدّم حشداً من المؤمنين من كنائس مختلفة فلا يسعنا إلاّ أن نتساءل: ألا تزال هناك حدود، في الوجدان، بين ما هو أرثوذكسي وغير أرثوذكسي؟ ألا يكون الاتحاد بين الكنائس قد تمّ بالفعل – ولو لم يتكرّس رسمياً بعد – ولكن على غير أساس وحدة الإيمان؟

إلى أين؟

خشيتنا أن نكون قد أُخذنا بحمى تكتّل المسيحيّين أكثر بكثير مما أُخذنا بوحدة الإيمان والخبرة والوجدان الكنسي.

خشيتنا أن ما نحن في صدده ليس استعادة الانتماء إلى وحدة الكنيسة بل إقامة اتحاد بين الجماعات المسيحية هنا وثمّة. هذا ما يسمّيه الأب جان رومانيدس "الدمج وإقامة الأحلاف الطائفية العالمية"[٤٦].

خشيتنا أن تكون العقيدة قد تحوّلت إلى شعارات يتلبّسها همّ سياسي اجتماعي جامح.

شعورنا أن اعتماد الاختزال اللاهوتي سيكون إلى ازدياد. المسيحية المسكونية سيُسوَّق لها باطّراد باعتبار الحدّ الأدنى المشترك بين الكنائس فيما يتقلّص الاهتمام بالفروقات العقدية فتمسي من خصوصية هذه أو تلك من الكنائس. هذا سينعكس على الشأن التربوي وعلى كل الشؤون التعاونية بين الكنائس.

شعورنا أن نطاق الاهتمام بقضايا شؤون الأرض كالسلام العالمي وحقوق الإنسان والبيئة سيتّسع لأن هذا المجال، بعد التحوّل الضمني التدريجي عن مجال العقيدة، سيصبح هو المجال الأمثل للتعبير عن اتحاد الجماعات المسيحية وترسيخ هذا الاتحاد.

شعورنا أن الخلطة في الصلاة والاشتراك في القدسات، ولو بصورة غير رسمية، سيستمر وسيكون إلى ازدياد لأن الليتورجيا، والحال هذه، ستكون عنصر الدعم الأكبر للمشروع المسكوني وتكريسه المَظنون "لدى الله"(!)

شعورنا أن المرحلة المقبلة مرشّحة للمزيد من المشروعات الوحدوية على غرار محاولة توحيد الأرثوذكسيّين والسريان الأنطاكيّين وتوحيد الأرثوذكسيّين والملكيّين الأنطاكيّين.

شعورنا أنّ ما يؤخّر مثل هذه المشروعات، بالدرجة الأولى، هو خوف الأرثوذكسيّين المحبّذين لها من ردود الفعل داخل المخيّم الأرثوذكسي.

شعورنا أن التغرّب الوجداني والتشنّج بين الأرثوذكسيّين مرشّحان للتعمّق والازدياد.

---

[٤٦] رومانيدس، الأب جان، الأرثوذكس: الوصول والحوار في "ما ينتظر الكنائس" (بالإنكليزية) ١٩٦٥ ص ١٣.

شعورنا أن التكتّلات ذات الشعارات المسيحية تخضع لمنطق تكتّلات الأمم على غرار خضوع ديانات الأمبراطورية الرومانية لخدمة قيصر إلاّ المسيحية فعُدَّ المسيحيّون، يومها، ملحدين. اليوم، في زمن العولمة، زمن الأمبراطورية الرومانية الجديدة، الكل يتّجه نحو اتحاد الشعوب. وما أخفق قديماً يؤمَل نجاحه اليوم. لذلك التكتّل المسيحي، راهناً، في تلاق مطّرد وديانات الأرض ومشروعات اتحاد الديانات قائمة على قدم وساق. الكل يعي أنك إذا شئت أن توحّد العالم فعليك أن توحّد الديانات أولاً. الماسونية الفكرية تجتاح العالم.

خشيتنا أن نكون قد دخلنا، من حيث لا ندري، في زمن التطويع لبابل جديدة. هذا يفعلونه، في الظاهر، باسم الله. وما يراد به، في الحقيقة، بناء برج رأسه بالسماء[٤٧].

الأرشمندريت توما (بيطار)

دير القدّيس سلوان الآثوسي

دوما – لبنان

---

[٤٧] تك ١١: ٤